المحاضرة الثانية

الأهداف :

التعرف على أوضاع بلاد المغرب قبيل مجيء الفاتحين المسلمين في عدة مناحي سياسيا اجتماعيا واقتصاديا

أوضاع بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي :

أ – الأوضاع السياسية :

كانت بلاد المغرب مسرحا لعدة حملات استعمارية متتالية هي الرومان[1] والوندال (429 – 533 م) والبيزنطيين (533 – 649 م) ، فقد عانت المنطقة من ويلات الاحتلال وسياساته الاستغلالية والتدميرية والهمجية ، وقد كان آخر احتلال خضعت له بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي هو الاحتلال البيزنطي .

حكم عدة ولاة بيزنطيين بلاد المغرب أمثال صولومون (534 – 536 م) الذي تمكن من هزيمة البربر سنة 535 م لكن الأهالي هزموه وشتتوا جيشه سنة 536 م ووقع تمرد في جيش صولومون مما أدى بالإمبراطور جستنيان إلى عزله ، ثم عين جرمانوس (536 – 539 م) الذي قضى على التمرد الحاصل في الجيش الروماني وتمكن من إضعاف البربر بقيادة استوزاس الذي تراجع إلى موريطانيا ، ثم أعاد الإمبراطور الحاكم صولومون مرة أخرى (539- 544 م) الذي عزم على قتال البربر وتمكن من هزيمة القائد ايابداس الذي تراجع إلى موريطانيا وتتبعهم صولومون وقضى على تحصيناتهم وأقام تحصينات بيزنطية بدلا منها غير انه لقي حتفه في قتاله مع البربر ، ومن الحكام الآخرين كذلك سرجيوس واريو بندوس الذين استفحلت الفوضى في عهدهم ، وكذا الحاكم جان ترو جليطة الذي اخمد ثورة البربر عام 547 وبداية 548 م واستسلم زعيمهم انطالاس ، غير أن النفوذ

---

[1] كان احتلال الرومان لبلاد المغرب عقب انتصاره على قرطاجة في سلسلة الحروب البونيقية الواقعة بين الطرفين .

البيزنطي بدا بالتراجع بعد وفاة الإمبراطور جستنيان سنة 565 م ، وتولى قيادة الإمبراطورية البيزنطية أباطرة ضِعاف بعده على شاكلة جستين الثاني (565-578 م) وطيبريوس (578-582م) وموريس (582-602م) وسرجيوس هرقل وهو بطريرك الذي انتشر الهدوء في عهده في بلاد المغرب ونشط التبشير المسيحي وسط البربر ، إلى أن أعلن الحاكم جرجيريوس سنة 646 م استقلاله عن الإمبراطورية البيزنطية [2].

لقد كان الأباطرة البيزنطيون يتفننون في استغلال خيرات المغرب وإذلال شعبه ومصادرة أملاكه ، ويقومون بتعيين الوالي أو الحاكم العام بأنفسهم والذي ينوب عنهم في تسيير بلاد المغرب ، ويسكن قرطاجنة وله كل الصلاحيات ، ويساعده موظفون ومستشارون وقضاة ...[3] ، غير أن آخر والي بيزنطي وهو جرجيريوس حاول الاستقلال عن الإمبراطورية البيزنطية الأم وضرب العملة باسمه ، وغادر قرطاجة واستقر في سبيطلة [4] ، والتي يُرجح من ورائها ابتعاده جغرافيا عن أي انتقام محتمل من الإمبراطور البيزنطي وذلك بنقل العاصمة إلى الداخل التونسي ، كما قد يكون المبرر هو الهروب من أي هجوم عربي محتمل بالتخندق وراء التحصينات الرومانية ، كما قد يكون رغبته في ضم برقة وطرابلس إلى ولاية افريقية (وهذا هو الأرجح لان جريجوريا كانت مقيمة ببرقة وتم خطبتها لقسطنطين ابن الإمبراطور هرقل) .

كانت بلاد المغرب مقسمة إلى سبع ولايات منها ولايات قنصلية وهي زوجيتانيا (شمال تونس حاليا ومركزها قرطاجنة) + بيزاسين (جنوبي تونس) + طرابلس ، وأربع مديريات وهي : نوميديا (شرق قسنطينة) + موريطانية الأولى (سطيف) + موريطانيا الثانية (شرشال) + موريطانيا الطنجية .

---

[2] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص 57 وما بعدها .

[3] عبد العزيز شهبي : تاريخ المغرب الإسلامي ، ط 1 ، مؤسسة كنوز الحكمة ، الجزائر ، 2013 ، ص 7 .

[4] تقع في الوسط الغربي لتونس حاليا .

انصرفت جهود الولاة إلى جمع الضرائب بالقوة واستغلال السكان وامتصاص كل مواردهم ،دون التفرغ إلى أعمال الإصلاح ، وهو ما انعكس سلبا على السكان بترك مزارعهم وتصفية تجارتهم في الغالب ، وعمد الكثيرون إلى احتراف اللصوصية ، إن هذه الضغوط والمظالم والتجاوزات أدت إلى ثورة الأهالي ودخولهم في صراع مع السلطة الحاكمة .

لقد اهتم البيزنطيون بتنظيم الجيش المتألف من القوات النظامية (مشاة وفرسان) ومن المرتزقة الموكل إليهم الدفاع عن بيزنطا من جهة الجنوب ويقيمون في قلاع وحصون متفرقة ، ومن البربر الموالين لبيزنطا والمعروفين باسم gentiles أو federati ، وقد اهتم الجيش البيزنطي بتشييد القلاع والحصون للتموقع بها وحماية أنفسهم من أي فلتان امني مغربي محتمل وقد أعادوا إحياء التحصينات الحربية لإسلافهم الرومان[5] .

إن سياسة التعسف التي سلكها الحكام البيزنطيون تجاه المغاربة ولدت ردود أفعال تمثلت في عدة ثورات عبرت عن رفض المغاربة للاحتلال الرومي ومنها تلك الثورة التي اضطرمت نيرانها بين سنتي 535 – 548 م وصرف حكام بيزنطة جهودا مضنية للقضاء عليها ، ومنها الثورة التي قادها كوتزيناس coutzinas وايفيسداياس ifisdaias ، ضِف إلى ذلك الهجمات المتكررة للقبائل البدوية للبربر الضاربة في الصحراء ضد الجيوش البيزنطية خاصة إقليم طرابلس .[6]

إن المقاومة البربرية المستدامة جعلت النفوذ البيزنطي يكاد يتمركز في المناطق الساحلية وبعض المناطق الممتدة بجنباتها ، في حين ظلت القبائل المغربية تبسط نفوذها عل ما سوى ذلك من المناطق دونما رادع لها ، متمتعة بالاستقلال التام في تسيير شؤونها . أما ساكنة تلك المناطق الخاضعة للسلطة البيزنطية المتعسفة والمتسلطة فقد وجدت في الفاتحين المسلمين أفضل خلاص لهم من عيش الذل والهوان والتمييز.[7]

---

[5] عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ص 77 - 82 .

[6] نفس المرجع ، ص 57 وما بعدها .

[7] عبد العزيز شهي : المرجع السابق ، ص 8 .

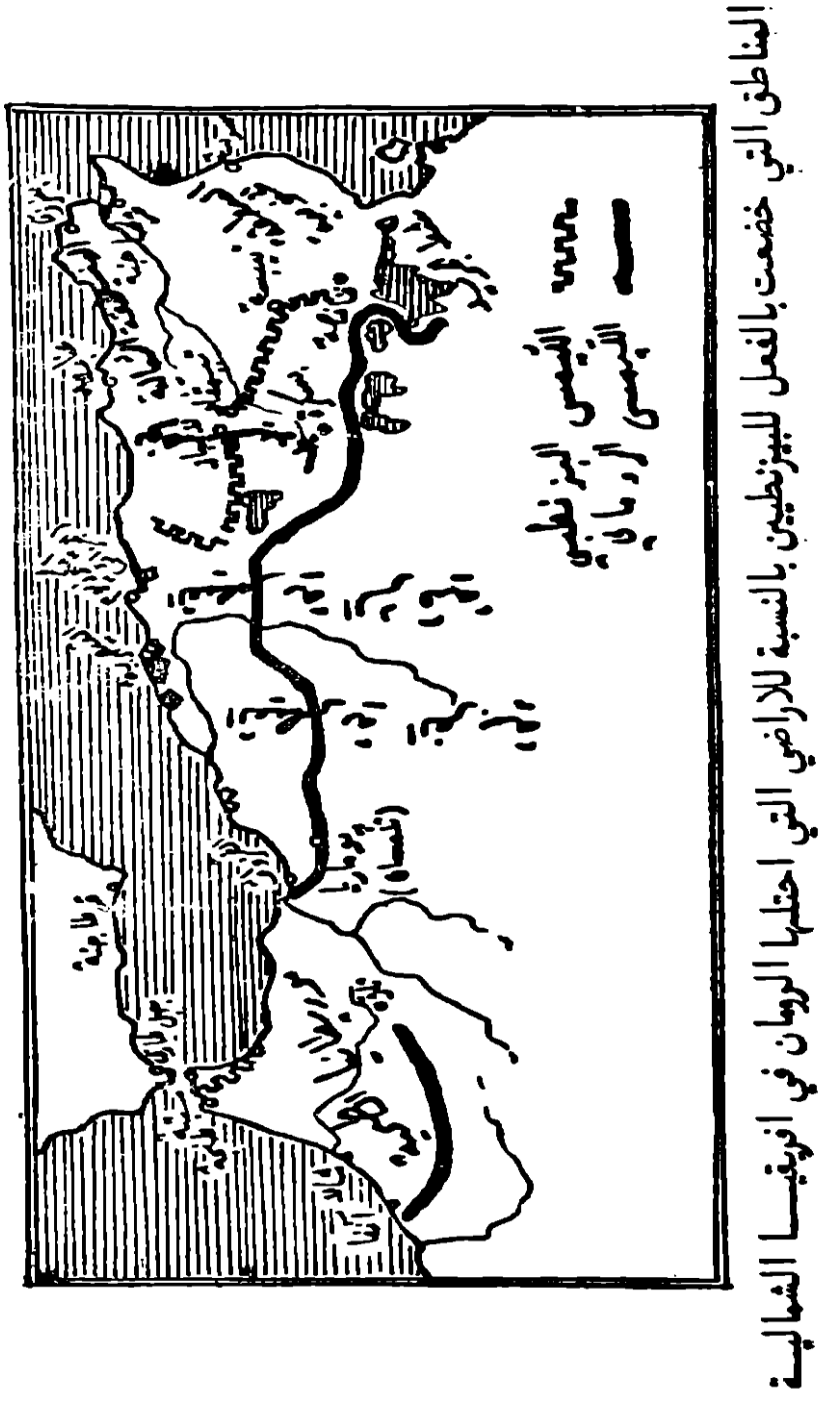

خريطة رقم 1 : مناطق النفوذ البيزنطي في بلاد المغرب القديم [8] .

[8] محمد محي الدين المشرفي : إفريقيا الشمالية في العصر القديم ، ط 4 ، دار الكتاب العربية ، لبنان ، 1389 هـ / 1969 م ، ص 149 .

ب- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية :

أما عن التركيبة البشرية ونشاطها الاقتصادي فان المجتمع البربري خليط من الأجناس (بربر ، زنوج ، يهود ، فينيقيون ، رومان ، وندال ، إغريق ... الخ) ذاب فيما بينه مشكلا مجتمعا متعايشا ، وقد شكلت القبيلة محور الأساس لهذا المجتمع .

أما عن المجتمع القبلي البربري فيمكن تقسيمه إلى :

01 - البرانس : ينتسبون إلى برنس بن بر فسموا برانساً ويرتدون بشكل عام البرنس وقبائهم الرئيسة أوربة ، صنهاجة ،كتامة ،مصمودة ،أوريغة ، أزداجة ، لمطة ، هكسورة ، جزولة ...الخ

02 - البتر : ينتسبون إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر ، فسموا بذلك بترا ، وقبائلهم الرئيسة هي : ضريسة ، نفوسة ، أداسة ، لواتة . وتفرع عنها قبائل مثل مكناسة وزناتة ومغراوة وبني يفرن وبنو زيان وغيرهم .

أما من حيث الوجهة الاجتماعية فينقسم البربر إلى مجموعتين هما :

01 - البربر الحضر : يسكنون السهول الخصبة والمدن والهضاب المزروعة ويعيشون على الزراعة والصناعة .

02 - البربر الرُّحل : ويعيشون على الرعي والترحال ، ويميلون للإغارة على السهول وما جاورهم من مناطق عمرانية .[9]

أما عن النشاط الاقتصادي فقد غلبت عليه الفلاحة بشكل عام سواء الزراعة أو الرعي والترحال ، ومن أهم المنتجات الزراعية الحبوب ، الزيتون والكروم والتّمور ، أما الثروة الحيوانية فقد تنوعت بين أغنام وماعز وابل .

---

[9] عبد الرؤووف الفقي : المرجع السابق ، ص ص 14 - 15 .

رغم قلة المادة الخبرية عن النشاط الاقتصادي للمغرب البيزنطي إلا انه من المؤكد مساهمة الموانئ المغربية للمدن الساحلية في النشاط الاقتصادي بعيدا عن أخطار الممالك المورية الداخلية ، كما ساهمت الأسواق في تنشيط الحركة التجارية المغربية ، فقد ورد في نص للمؤرخ بروكوب حديثه عن استعمال الفلاحين للعربات التي كانت حتما محملة بالمنتوجات الفلاحية وغيرها ، كما عثر المؤرخون على نقيشة بيزنطيو بجزيرة سردينيا تتحدث عن المتاجرة بالحيوانات باستعمال القوارب ، أو نص بيزنطي مكتشف بتبسة يؤكد وجود أمين للمال مكلف بالزيوت بين سنتي 542 – 543 م ، أو حديث بروكوبيوس عن الأسرى في سياق حديثه عن هزيمة قبيلة لواتة أمام البيزنطيين حيث ذكر أن سعر الطفل الأسير يضاهي ثمن الخروف وهو ما يوحي ربما بتدني ثمن الخراف أو لربما كثرة الأسرى ، وعموما فقد ظلت الأسواق التي تقام في المدن تساهم في الحركة التجارية ، كما ظلت المنتوجات الريفية بضاعة رائجة في هذه الأسواق .[10]

10 يوسف عيبش : الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2006 - 2007 ، ص ص 187 - 188 .